وكلما طبَّق الزوجـان المقاييس الدينية ، وتحلَّيـا بآداب الدين وجد كل منهما فى الآخر ما يعجـبه ، فإنْ ذهب الجمال الظاهرى مع الزمن فـسيـبقى جـمال الروح ووقـارها ، سيـبقى فى المـرأة جمـال الطبع والسلوك ، وكلما تذكرتَ إخـلاصها لك وتفانيها فى خدمـتك وحرْصها على معـاشك ورعايتهـا لحرمة بيتك كلّمـا تمسكْت بها ، وازددتَ حـبا لها .

وكذلك الحال بـالنسبة للزوجة ، فلكل مـرحلة من العمر جاذبيـتها وجمالها الذى يُعوِّضنا ما فات .

ولما كان من طبـيعة المرأة أنْ يظهـر عليها علامات الكبَـر أكثر من الرجل ؛ لذلك كان على الرجل أنْ يراعى هذه المسألة ، فلماَ سأل أحدهم الحسن : لقـد تقدم رجل يخـطب ابنتى وصفَـتـه كـيت وكيت ، قـال : لا تنكحها إلا رجلاً مؤمناً ، إنْ أحبها أكرمها ، وإنْ كرهها لم يظلمها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم] يتـفكرون فى هذه المـسـائل وفـى هذه المـراحل التى تمـرُّ بالحـيـاة الزوجيـة ، وكيف أن الله تعالى جعل لنا الأزواج من أنفـسنا ، وليستْ من جنس آخر ، وكيف بنى هذه العلاقة على السَّكَن والحب والمودة ، ثم فى مرحلة الكبَـر على الرحمـة التى يجب أنْ يتعايش بهـا الزوجان طيلة حياتهما معاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ (٢٢) ﴾

فى خَلْق السموات والأرض آيات أظهرها لنا كما قال فى موضع آخر إنها تقوم على غير عمد : ﴿خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ⦗١٠⦘﴾ [لقمان]

فالسماء التى تروْنها على امتداد الأفق تقوم بغير أعمدة[1] ، ولكم أنْ تسيروا فى الأرض ، وأنْ تبحثوا عن هذه العُمد فلن تروْا شيئاً . أو ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا.. ⦗١٠⦘﴾ [لقمان] يعنى : هى موجودة لكن لا ترونها[2] .

والمنطق يقتضى أن الشىء العالى لا بُدَّ له إما من عُمُد تحمله من أسفل ، أو قوة تُمسكه من أعلى ؛ لذلك ينبغى أنْ نجمع بين الآيات لتكتمل لدينا هذه الصورة ، فالحق سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا .. ⦗٤١⦘﴾ [فاطر]

إذن : ليست للسماء أعمدة ، إنما يمسكها خالقها - عز وجل - من أعلى ، فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ، ولا تتعجب من هذه المسألة ، فقد أعطانا الله تعالى مثالاً مُشاهداً فى قوله سبحانه : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ .. ⦗٧٩⦘﴾ [النحل]

فإنْ قُلْت : يمسكها فى جو السماء حركة الجناحين ورفرفتها التى تحدث مقاومة للهواء ، فترتفع به ، وتمسك نفسها فى الجو ، نقول :

---

(١) قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . [تفسير ابن كثير ٤٤٢/٣] وقال (٤٩٩/٢) : « قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة يعنى : بلا عمد . وكذا روى عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ⦗٦٥⦘﴾ [الحج] » .

(٢) قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد : لها عمد لا ترونها . (نقله ابن كثير فى تفسيره ٤٤٢/٣) وقال (٤٩٩/٢) : « روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا : لها عمد ولكن لا تُرى » .

وتُمسك أيضاً فى جو السماء بدون حركة الجناحين ، واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ .. (١٩)﴾ [الملك]

فترى الطير فى السماء مادّاً جناحيه ثابتاً بدون حركة ، ومع ذلك لا يقع على الأرض ولا يُمسكه فى جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله .

إذن : خُذْ مما تشاهد دليلاً على صدْق ما لا تشاهد ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر] مع أنها خُلقت لخدمة الإنسان .

فمع أنك أيها الإنسان مظهر من مظاهر قدرة الله ، وفيك انطوى العالم الأكبر ، إلا أن عمرك محدود لا يُعَدُّ شيئاً إذا قِيسَ بعمر الأرض والسماء والشمس والقمر .. الخ .

ثم يعود السياق هنا إلى آية من آيات الله فى الإنسان : ﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢)﴾ [الروم] اللسان يُطلَق على اللغة كما قال تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء] وقال : ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

ويُطلَق أيضاً على هذه الجارحة المعروفة ، وإنما أُطلق اللسان على اللغة ؛ لأن أغلبها يعتمد على اللسان وعلى النطق ، مع أن اللسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً فى عملية النطق ، حيث يشترك معه فى النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصوتية .. الخ ، لكن اللسان هو العمدة فى هذه العملية . إذن : فاختلاف الألسنة يعنى اختلاف اللغات .

وسبق أنْ قُلْنا : إن اللغة ظاهرة اجتماعية يكتسبها الإنسان من البيئة المحيطة به ، وحين نسلسلها لا بُدَّ أنْ نصلَ بها إلى أبينا آدم عليه السلام ، وقلنا : إن الله تعالى هو الذى علَّمه اللغة حين علَّمه

الأسماء كلها ، ثم يتخذ آدم وذريته من بعده هذه الأسماء ليتفاهموا بها ، وليضيفوا إليها أسماء جديدة .

لذلك نرى أولادنا مثلاً حينما نريد أنْ نُعلِّمهم ونُرقِّيهم نُعلِّمهم أولاً أسماء الأشياء قبل أنْ يتعلموا الأفعال ؛ لأن الاسم أظهر ، ألاَ ترى أن الفعْل والحدث يدل عليه باسم ، فكلمة (فعْل) هى ذاتها اسم .

لكن ، كيف ينشأ اختلاف اللغات ؟ لو تأملنا مثلاً اللغة العربية نجدها لغة واحدةً ، لكن بيئاتها متعددة : هذا مصرى ، وهذا سودانى ، وهذا سورى ، مغربى ، عراقى ... الخ نشترك جميعاً فى لغة واحدة ، لكن لكل بيئة لهجة خاصة قد لا تُفهَم فى البيئة الأخرى ، أما إذا تحدَّثنا جميعاً باللغة العربية لغة القرآن تفاهم الجميع بها .

أما اختلاف اللغات فينشأ عن انعزال البيئات بعضها عن بعض ، هذا الانعزال يؤدى إلى وجود لغة جديدة ، فمثلاً الإنجليزية والفرنسية والألمانية و ... الخ ترجع جميعها إلى أصل واحد هو اللغة اللاتينية ، فلما انعزلتْ البيئات أرادتْ كل منها أن يكون لها استقلالية ذاتية بلغة خاصة بها مستقلة بألفاظها وقواعدها .

أو ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ.. (٢٢) ﴾ [الروم] يعنى : اختلاف ما ينشأ عن اللسان وغيره من آلات الكلام من أصوات مختلفة ، كما نرى الآن فى آخر صيحات علم الأصوات أنْ يجدوا للصوت بصمة تختلف من شخص لآخر كبصمة الأصابع ، بل بصمة الصوت أوضح دلالة من بصمة اليد .

ورأينا لذلك خزائن تُضْبط على بصمة صوت صاحبها ، فساعة يُصدر لها صوتاً تفتح له .

ومن العجيب والمدهش فى مجال الصوت أن المصوِّتات كثيرة

منها : الجماد كحفيف الشجر وخرير الماء ، ومنها : الحيوان ، نقول : نقيق الضفادع وصهيل الخيـل ، ونهيق الحمار ، وثُغَاء الشاة ، ورُغَاء الإبل .. الخ لكن بالله أسألك : لو سمعتَ صوت حمار ينهق ، أتستطيع أن تقـول هذا حـمار فـلان ؟ لا ، لأن كل الأصـوات من كُلِّ الأجناس خلا الإنسان صوتها واحد لا يميزه شيء .

أمـا في الإنســان ، فلكُلٍّ منّا صـوته المـميـز في نبـرته وحـدّته واستعـلائه أو استفاله ، أو في رقـته أو في تضخيمـه .. الخ . فَلماذا إذن تميَّز صوت الإنسان بهذه الميزة عن باقي الأصوات ؟

قالـوا : لأن الجماد والـحيوان ليـس لهمـا مسئـوليات ينبـغي أنْ تُضبط وأنْ تُحدَّد كـما للإنسان ، وإلا كيف نُميز المـجرم حين يرتكب جريمته ونحن لا نعرف اسمه ، ولا نعرف شيئاً من أوصافه ؟ وحتى لو عرفنا أوصــافه فإنـها لا تدلُّنا عليه دلالة قـاطعة تُحـدِّد المسئـولية ويترتب عليها الجزاء .

وقال سبحانه بعدها ﴿وَأَلْوَانِكُمْ.. ﴿٢٢﴾﴾ [الروم] فاختلاف الألسنة والألوان ليحـدث هذا التميُّـز بين الناس ، ولأن الإنسان هو المسـئول خلق اللهُ فيـه اختلافَ الألسنة والألوان ؛ لنستـدل عليه بشكله : بطوله أو قِصَرِه أو ملابسه ... الخ .

وفي ذلك ما يضبط سلوك الإنسان ويُقوِّمه حين يعلم أنه لن يفلت بفعْلته ، ولا بُدَّ أنْ يدل عليه شيء من هذه المميزات .

لذلك نرى رجال البحث الجنائي ينظمـون خطة للبحث عن المجرم قد تطول ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أنْ يُـضيِّقوا دائرة البحث فيُـخرجون منها مَنْ لا تـنطبق عليه مواصـفاتهم ، ومـا يزالون يُضيِّـقون الدائرة حتى يصلوا للجاني .

والحق ـ تبـارك وتعالى ـ يقـول : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. ﴿١٣﴾ [الحجرات]

فالتميُّز والتعارف أمر ضرورى لاستقامة حركة الحياة ، ألاَ ترى الرجل يضع لكل ولد من أولاده اسماً يُميِّزه ، فإن عشق اسم محمد مثلاً ، وأحب أن يسمى كل أولاده محمداً لا بد أن يميزه ، فهذا محمد الكبير ، وهذا محمد الصغير ، وهذا الأوسط .. الخ .

إذن : لا بُدَّ أن يتميز الخَلْق لنستطيع تحديد المسئوليات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] أى : فى الخَلْق على هذه الهيئة الحكيمة المحكمة ﴿ لَآيَاتٍ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] لنعتبر بها ، فالخالق سبحانه إنْ وحَّد الصفات فدليل على الحكمة ، وإن اختلفت فدليل على طلاقة القدرة . وانظر مثلاً إلى الصانع الذى يصنع أكواب الزجاج ، تراه يأخذ عجينة الزجاج ويصبُّها فى قالب فتخرج جميعها على شكل واحد ، أما الخباز مثلاً فيأخذ العجينة ويجعلها رغيفاً فلا ترى رغيفاً مثل الآخر .

أمَّا الخالق - عز وجل - فيخلق بحكمة وبطلاقة قدرة ، ويخلق سبحانه ما يشاء ، غير محكوم بقالب معين .

وقوله ﴿ لِّلْعَالِمِينَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] أى : الذين يبحثون فى الأشياء ، ولا يقفون عند ظواهرها ، إنما يتغلغلون فى بطونها ، ويَسْبِرون أغوارها للوصول إلى حقيقتها .

لذلك يلوم علينا ربنا عز وجل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف] فلا يليق بأصحاب العقول أن يغفلوا عن هذه الآيات ، إنما يتأملونها ليستنبطوا منها ما ينفعهم فى مستقبل حياتهم ، كما نرى فى المخترعات والاكتشافات الحديثة التى خدمتْ البشرية ، كالذى اخترع عصر

البخار ، والذى اخترع العجلة ، والذى اكتشف الكهرباء والجاذبية والبنسلين .. الخ . إذن : نمر على آيات الله فى الكون بيقظة ، وكل العلوم التجريبية نتيجة لهذه اليقظة .

والعَالمون : جمع عالم ، وكانت تطلق فى الماضى على مَنْ يعرف الحلال والحرام ، لكن هى أوسع من ذلك ، فالعالم : كل مَنْ يعلم قضية كونية أو شرعية ، ويُسمَّى هذا « عالم بالكونيات » وهذا عالم بالشرع ، وإنْ شئتَ فاقرأ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر سبحانه النبات ، ثم الجماد ، ثم الناس ، ثم الحيوان .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر] على إطلاقها فلم يُحدِّد أى علماء : علماء النبات ، أو الحيوان ، أو الجمادات ، أو علماء الشرع ، إذن : العَالم كل مَنْ يعلم حقيقة فى الكون وجودية أو شرعية من عند الله .

لكن ، لماذا أطلقوا العالم على العالم بالشرع خاصة ؟ قالوا : لأنه أول العلوم المفيدة التى عرفوها ؛ لذلك رأينا من آداب العلم فى الإسلام ألاَّ يُدخل علماء الشرع أنفسهم فى الكونيات ، وألاَّ يُدخل علماء الكونيات أنفسهم فى علوم الشرع .

والذى أحدث الاضطراب بين هذه التخصصات أن يقول مثلاً علماء الكونيات بأن الأرض تدور حول الشمس ، فيقوم من علماء الدين مَنْ يقول : هذا مخالف للدين ـ هكذا عن غير دراسة ، سبحان الله ، لماذا تُقحم نفسك فيما لا تعلم ؟ وماذا يضيرك كعالم بالشرع أن تكون

الأرض كرة تدور أو لا تدور ؟ ما الحرام الذى زاد بدوران الأرض وما الحلال الذى انتقص ؟ كذلك الحال لما صعد الإنسان إلى القمر ، اعترض على ذلك بعض رجال الدين .

كذلك نسمع مَنْ لا علْم له بالشرع يعترض على بعض مسائل الشرع يقول : هذه لا يقبلها العقل . إذن : آفة العلم أن يقحم العالم نفسه فيما لا يعلم ، ولو التزم كلٌّ بما يعلم لارتاح الجميع ، وتركت كل ساحة لأهلها .

وعجيب أن يستشهد رجال الدين على عدم كروية الأرض بقوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا .. (١٩) ﴾ [الحجر] ولو تأملوا معنى ﴿ مددْناها .. (١٩) ﴾ [الحجر] لما اعترضوا ؛ لأن معنى مددناها يعنى : كلما سرْتُ فى الأرض وجدتها ممتدة لا تنتهى حتى تعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهذا يعنى أنها كرة لا نهاية لها ، ولو كانت مُسطحة أو مُثلثة مثلاً لكان لها نهاية .

إذن : نقول للعلماء عموماً : لا تُدخلوا أنوفكم فيما لا علْم لكم به ، ودَعُوا المجال لأصحابه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. (٦٠) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾

كذلك من الآيات العجيبة الدالة على قدرة الله ﴿ منامُكم .. (٢٣) ﴾ [الروم] فحتى الآن لم يكشف علماء وظائف الأعضاء والتشريح عن سرِّ

النوم ، ولم يعرفوا - رغم ما قاموا به من تجارب - ما هو النوم . لكن هو ظاهرة موجودة وغالبة لا يقاومها أحد مهما أُوتى من القوة ، ومهما حاول السهر دون أنْ ينام ، لا بُدَّ أن يغلبه النوم فينام ، ولو على الحصى والقتاد ، ينام وهو واقف وهو يحمل شيئاً لا بُدَّ أنْ ينام على أية حالة .

وفلسفة النوم ، لا أن نعرف كيف ننام ، إنما أن نعرف لماذا ننام ؟ قالوا : لأن الإنسان مُكوَّن من طاقات وأجهزة لكل منها مهمة ، فالعين للرؤية ، والأذن للسمع .. الخ ، فساعة تُجهد أجهزة الجسم تصل بك إلى مرحلة ليستْ قادرة عندها على العمل ، فتحتاج أنت - بدون شعورك وبأمر غريزى - إلى أن ترتاح كأنها تقول لك كفى لم تَعُد صالحاً للعمل ولا للحركة فنم .

ومن عجيب أمر النوم أنه لا يأتى بالاستدعاء ؛ لأنك قد تستدعى النوم بشتى الطرق فلا يطاوعك ولا تنام ، فإنْ جاءك هو غلبك على أىِّ حال كنتَ ، ورغم الضوضاء والأصوات المزعجة تنام . لذلك يقول الرجل العربى : النوم طيف إنْ طلبتَه أعْنَتَك ، وإنْ طلبك أراحك .

ولأهل المعرفة نظرة ومعنى كونى جميل فى النوم ، يقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] فكل ما فى الوجود يُسبِّح حتى أبعاض الكافر وأعضاؤه مُسبحة ، إنما إرادته هى الكافرة ، وتظل هذه الأبعاض خاضعة لإرادة صاحبها إلى أنْ تنفكَّ عن هذه الإرادة يوم القيامة ، فتشهد عليه بما كان منه ، وبما أجبرها عليه من معصية الله .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بقائد الكتيبة حين يطيعه جنوده ولو فى

الخطأ ؛ لأن طاعته واجبة إلى أنْ يعودوا إلى القائد الأعلى فيتظلمون عنده ، ويخبرونه بما كان من قائدهم .

وذكرنا أن أحد قواد الحرب العالمية أراد أنْ يستخدم خدعة يتفوق بها على عدوه ، رغم أنها تخالف قانون الحرب عندهم ، فلما أفلحتْ خُطّته وانتصر على عدوه كرَّموه على اجتهاده ، لكن لم يَفُتهم أنْ يعاقبوه على مخالفته للقوانين العسكرية ، وإنْ كان عقاباً صُورياً لتظل للقانون مهابته .

كذلك أبعاض الكافر تخضع له في الدنيا ، وتشهد عليه يوم القيامة : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

مع أن هذه الجوارح هي التي نطقتْ بكلمة الكفر ، وهي التي سرقتْ .. الخ ؛ لأن الله أخضعها لإرادة صاحبها ، أما يوم القيامة فلا إرادةَ له على جوارحه : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت] لذلك يُطمئننا الحق سبحانه بقوله : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فإذا ما نام الكافر ارتاحتْ منه أبعاضه وجوارحه ، ارتاحتْ من مرادات الشر عنده ؛ لذلك يُحدِّثنا إخواننا الذين يحجُّون بيت الله يقولون : هناك النوم فيه بركة ، ويكفيني أقلّ وقت لأرتاح ، لماذا ؟ لأن فكرك في الحج مشغول بطاعة الله ، ووقتك كله للعبادة ، فجوارحك في راحة واطمئنان لم ترهقها المعصية ؛ لذلك يكفيها أقل وقت من النوم لترتاح .

وفي ضوء هذا الفهم نفهم قول النبي ﷺ : « تنام عيني ولا ينام

قلبى »[1] لأنه ﷺ حياته كلها للطاعة ، فجوارحه مستريحة ، فيكفيه من النوم مجرد الإغفاءة .

وفى العامية يقول أهل الريف : نوم الظالم عبادة ، لماذا ؟ لأنه مدة نومه لا يأمر جوارحه بشرٍّ ، ولا يُرغمها على معصية فتستريح منه أبعاضه ، ويستريح الناس والدنيا من شره ، وأىّ عبادة أعظم من هذه ؟

ونلحظ فى هذه الآية ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فجعل الليل والنهار محلاً للنوم ، ولابتغاء الرزق ، وفى آية أخرى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣) ﴾ [القصص] فجمعهما معاً ، ثم ذكر تفصيل ذلك على الترتيب ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣) ﴾ [القصص] أى : فى النهار .

وهذا أسلوب يُعرف فى اللغة باللفِّ والنشر ، وهو أنْ تذكر عدة أشياء محكوماً عليها ، ثم تذكر بعدها الحكمَ عليها جملةً ، وتتركه لذكاء السامع ليُرجِع كل حكم إلى المحكوم عليه المناسب .

ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبى وجَفْنِى واللسَان وخَالِقى   رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِر وغَفُور

فجمع المحكوم عليه فى ناحية ، ثم الحكم فى ناحية ، فجَمْع المحكوم عليه يسمى لَفّاً ، وجَمْع الحكم يُسمى نَشْراً .

---

(١) حديث متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٨) أن عائشة سئلت : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ فى رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة : يصلى أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً . فقلت : يا رسول الله تنام قبل أن توتر ؟ قال : تنام عينى ، ولا ينام قلبى » .

وهاتان الآيتان من الآيات التى وقف أمامها العلماء ، ولا نستطيع أنْ نخرج منهما بحكم إلا بالجمع بين الآيات ، لا أن نفهم كل آية على حدة ، فنلحظ هنا فى الآية التى معنا ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] أن الله تعالى جعل كلاً من الليل والنهار محلاً للنوم ، ومحلاً للسعى .

وفى الآية الأخرى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ (٧٣) ﴾[القصص] ثم قال ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (٧٣) ﴾ [القصص] ولم يقل (فيه) ويجب هنا أنْ نتنبه ، فهذه آية كونية أن يكون الليل للنوم والسكون والراحة ، والنهار للعمل وللحركة ، فلا مانع أن نعمل بالليل أيضاً ، فبعض الأعمال لا تكون إلا بليل ، كالحراس ورجال الأمن والعسس والخبازين فى المخابز وغيرهم ، وسكن هؤلاء يكون بالنهار ، وبهذا الفهم تتكامل الآيات فى الموضوع الواحد .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] يعنى : طلب الرزق والسَّعْى إليه يكون فى النهار ويكون فى الليل ، لكن جمهرة الناس يبتغونه بالنهار ويسكنون بالليل ، والقلة على عكس ذلك .

فإنْ قلتَ : هذا عندنا حيث يتساوى الليل والنهار ، فما بالك بالبلاد التى يستمر ليلها مثلاً ثلاثة أشهر ، ونهارها كذلك ، نريد أن نفسر الآية على هذا الأساس ، هل يعملون ثلاثة أشهر وينامون ثلاثة أشهر ؟ أم يجعلون من أشهر الليل ليلاً ونهاراً ، ومن أشهر النهار أيضاً ليلاً ونهاراً ؟ لا مانع من ذلك ؛ لأن الإنسان لا يخلو من ليل للراحة ، ونهار للعمل أو العكس ، فكل من الليل والنهار ظرف للعمل أو للراحة .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يمتنُّ علينا بتعاقُب الليل والنهار ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] وذيَّل

الآية بأفلا تسمعون ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] وذيَّل هذه بأفلا تبصرون ، لماذا ؟

قالوا : لأن النهار محلُّ الرؤية والبصر ، أما الليل فلا بصرَ فيه ، فيناسبه السمع ، والأذن هى الوسيلة التى تؤدى مهمتها فى الليل عندما لا تتوفر الرؤية .

وفى موضع آخر : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] فالليل يخلُف النهار ، والنهار يخلُف الليل ، هذا فى الزمن العادى الذى نعيشه ، أما فى بدْء الخَلْق فأيهما كان أولاً ، ثم خلفه الآخر ؟

فإنْ قلت : إن الليل جاء أولاً ، فالنهار بعده خلْفة له ، لكن الليل فى هذه الحالة لا يكون خلفة لشىء ، والنص السابق يوضح أن كلاً منهما خلْفة للآخر ، إذن : فما حلُّ هذا اللغز ؟

مفتاح هذه المسألة يكمن فى كروية الأرض ، ولو أن رسول الله ﷺ أخبر فى بداية البعثة بهذه الحقيقة لما صدَّقوه ، كيف ونحن نرى مَنْ ينكر هذه الحقيقة حتى الآن .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يترك قضية كونية كهذه دون أنْ يمسَّها ولو بلُطْف وخفة ، حتى إذا ارتقت العقول تنبهتْ إليها ، فلو أن الأرض مسطوحة وخلق الله تعالى الشمس فى مواجهة الأرض لاستطعنا أنْ نقول : إن النهار جاء أولاً ، ثم عندما تغيب الشمس يأتى الليل ، أما إنْ كانت البداية خلْق الأرض غير مواجهة للشمس ، فالليل فى هذه الحالة أولاً ، ثم يعقبه النهار ، هذا على اعتبار أن الأرض مسطوحة .

وما دام أن الخالق ـ عز وجل ـ أخبر أن الليل والنهار كل منهما

خلْقة للآخر ، فلا بُدَّ أنه سبحـانه خلق الأرض على هيئة بحيث يوجد الليل ويوجد النهـار معاً ، فإذا ما دارت دورة الكون خلـف كل منهما الآخر ، ولا يتأتَّى ذلك إلا إذا كانتْ الأرض مُكوَّرة ، فما واجه الشمسَ منها صار نهاراً ، وما لم يواجه الشمس صار ليلاً .

لذلك يقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (٤٠) ﴾ [يس]

فالحق سبحانه ينفى هنا أنْ يسبقَ الليلُ النهارَ ، فلماذا ؟

قالوا : يعتـقدون أن الليلَ سابقُ النهار ، ألاَ تراهم يلتـمسون أول رمضان بليله لا بنهـاره ؟ وما داموا يعتقـدون أن الليل سابق النهار ، فالـمقابـل عندهم أن النهار لا يسـبق الليل ، هذه قضـية أقـرَّها الحق سبحـانه ؛ لذلك لم يعدل فيها شيـئاً إنما نفى الأولى ﴿ **وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** .. (٤٠) ﴾ [يس]

إذن : نفى مـا كانوا يعـتقـدونه ﴿ **وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَـارِ** .. (٤٠) ﴾ [يس] وصدَّق على مـا كانوا يعتـقدونه من أن النهـار لا يسبق الليل . فنشـأ عن هذه المـسألـة : لا الليل سابـق النهار ، ولا النـهار سـابق الليل ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا وُجدا فى وقت واحد ، فـما واجه الشمسَ كان نهاراً ، وما لم يواجه الشمس كان ليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) ﴾